الفصل الخامس

جسر بلاك ووتر

«لقد كنا نعلم حتى قبل مغادرتنا الكويت أن هذا العقد مآله الهلكة»

- ت - بوي، أحد المتعاقدين الأمنيين العاملين في شركة بلاك ووتر، وكان في الأصل مكلفاً بالعمل ضمن الفريق الذي لقي أعضاؤه حتفهم في الفلوجة

أنا جالس في الحانة التابعة لفندق بيلاغيو في مدينة لاس فيغاس بعد منتصف الليل. وتتردد في أجواء الحانة أصوات أحاديث النسوة اللاتي يرشفن المارتيني، وأصوات المباهاة الصادرة عن المقامرين بفوز جديد. ويجلس في الجهة المقابلة لي رجل في منتصف عمره، ذو شعر أشقر خفيف وشارب قصير. وقد يخيّل لمن يشاهدنا أننا من رجال الأعمال أو من وكلاء المبيعات نقضي وقتاً للاستراحة بعد فراغنا من المشاركة في معرض تجاري. غير أن هذا الشخص الذي يجلس تجاهي هو ضابط سابق من القوات الخاصة، وكان يحدثني عن معركة الفلوجة، ويتذكر قائلاً بكل هدوء: «كانت الجثث مكوّمة بعضها فوق بعض. وفي نقطة واحدة كان هناك خمس عشرة جثة، ومن المؤكد أن فريقنا قام بقتل أكثر من 500 عراقي على الأقل في ذلك اليوم، وقد توقفنا عن إحصاء القتلى عند ذلك الرقم». ويتوقع هذا الضابط أن يحال إلى التقاعد قريباً، ولا يوجد لديه أي نية في التحول إلى العمل في قطاع المتعاقدين الأمنيين الخاص، ويتذكر هذا الرجل الفلوجة بوصفها أعنفَ تجربةٍ مرت عليه في حياته المهنية: فهي هجوم تركز فيه غضب المعركة كله على بلدة واحدة بهدف الثأر للهجوم الذي وقع على بعض المتعاقدين الأمنيين. وهي الحادثة التي تسببت في تعريض تلك المدينة لعربدة عنيفة من الدمار».

بـدأت معركـة الفلوجـة في نوفمبر مـن عام 2004، حين قـام ستـة آلاف من الجنود الأمريكيـين يرافقهـم ألفان من الجنـود العراقيين باقتحام المدينة مـن الشمال لمواجهة رجـال المقاومـة العراقيـة ودفع السـكان إلى خارج المدينـة. وبعد انتهـاء المعركة تحوّلت الفلوجـة إلى مدينـة أشباح بعد أن قضى ألف ومئتا مقاتـل وست مئة من المدنيين نحبَهم فيهـا، ولقي سبعون من الأمريكيـين حتفهم وأصيب مئتان منهم بجـروح بليغة في القتال الذي وقع للسيطرة على تلك المدينة.

خـلال المرحلة الأولى مـن العمليات العسكريـة في العراق في ربيع عـام 2003، بدأت القـوات الأمريكية عملية للاستيلاء على الفلوجة ولكـن الأوامر صدرت إليهم بالتراجع. وبقيـت المدينة في السنة الأولى من الاحتلال قاعـدةً خارجة عن السيطرة، ونقطة جذب للعنـف، ومركزاً آمنـاً لانطلاق عمليات المقاومة التي أخذت تتوسـع في المنطقة. وقد كان الجيش الأمريكي يعمل بما يتجاوز طاقته القصوى؛ ذلك أنه لم يكن على استعداد لمواجهة المقاومة العنيفة للاحتلال، إضافة إلى النقص في الرجال والإمدادات الذي كان يعانيه.

وقد فتح هذا الوضع المتسم باليأس والقنوط مجالاً فسيحاً لفرص العمل لشركة بلاك ووتـر. وفي تلـك الأثناء، كانت بـلاك ووتر تقدم خدماتهـا الأمنية لوكالـة الاستخبارات المركزيـة الأمريكية في أفغانستان وباكستان، وكانت قد فرغت لتوها من إعداد ستين من المتعهدين الأمنيين المتعاقدين معها لتولي مهمة تقديم الحراسة الشخصية لحاكم العراق الجديـد بـول بريمر. وكانت بـلاك ووتر تسعى جاهـدة إلى توسيع مجـال عملها في هذه السـوق الأكثر درأً للربح والأسرع نمـواً من بين أسواق الخدمات الأمنية في العالم. ولفهم الصـورة الكاملة لما حـدث للمتعاقدين الأربعة في الفلوجة، فإن مـن الأفضل أن نبدأ من القمـة بدلاً من القاع، ذلـك أن بلاك ووتر كانت تقبع في أسفـل درجات سلم العقد الذي لقي فيه الرجال الأربعة حتفهم في أثناء تنفيذه.

تتولى شركات كيلوغ وبـراون وروت التابعة لشركة هاليبرتون، وهذه الشركات الثلاث التي يشار إليها اختصاراً (كي بي آر) تتولى إدارة العقد المربح الذي أبرمته مع وزارة الدفاع الأمريكية لتقديم خدمات الدعم للجيش الأمريكي على مستوى العالم الذي تبلغ قيمته 7.2 بلايين دولار، ويقوم على أساس من التكلفة زائد الربح، وهذا العقد يعرف اختصاراً بعقد

لوغكاب. وتستعمل شركات كي بي آر في تنفيذها هذا العقد شبكة واسعة من المتعهدين في إدارة عناصر مختلفة من العقد، ويقوم هؤلاء المتعهدون بدورهم في التعاقد مع متعهدين آخرين من الباطن للقيام بجوانب أضيق من التزاماتهم، وربما يقوم المتعهدون الآخرون بالتعاقد مع مزيد من المتعهدين الثانويين لمساعدتهم في تنفيذ المهمات المحددة الموكلة إليهم- وهذا الوضع يخلق طبقاتٍ متعددة من المتعهدين والمتعهدين الثانويين.

وفي حادثة الفلوجة، كانت بلاك ووتر مكلفة بتقديم خدمات الأمن والحماية لشركة ريجنسي للفنادق والضيافة، وهي شركة متعاقدة مع شركة ألمانية للخدمات الغذائية اسمها يورست لخدمات الدعم واختصاراً (إي إس إس)، وهذه الأخيرة كانت متعاقدة من الباطن مع شركة كي بي آر من بين عدد كبير ومتنوع من الشركات التي جرى التعاقد معها للمساعدة في تنفيذ عقد لوغكاب. وحتى ضمن عقد بلاك ووتر، كان هناك متعاقدون من الباطن عهد إليهم شراء المعدات ومهمة توظيف طاقم الإدارة والمتعاقدين المستقلين الذين سيقومون بالمهمات الفعلية، وهو ما من شأنه أن يوجد طبقات متعددة من المتعاقدين، والأرباح الناتجة عن تنفيذ مهمة إطعام الجنود.

وكانت سياسة الجيش الأمريكي والخارجية الأمريكية في ذلك الوقت تقضي بعدم توفير قوة حماية مرافقة فردية أو للشركات الخاصة ضمن إشعار قصير الأمد، وإن كانت هذه الشركات تعمل على تقديم موارد مهمة للجيش. ولما كانت كي بي آر ملتزمة بتقديم خدمات النقل والإمداد وَفْقَ معادلة التكلفة زائد الربح، فقد كان من الأفضل لها من الناحية العملية ومن زاوية الربح أن تعهد بمهمة تقديم الأمن والحماية للقوافل التي تنقل الإمدادات إلى شركة خاصة. وقد نافست بلاك ووتر بقوة ونجاح لكسب هذه العقود مدركة أنها متى ما حققت ذلك فإن الأرباح التي يمكن جَنْيُها ستكون مضاعفة مع ازدياد الطلب على الخدمات الأمنية.

وتطلب عقد إي أس أس الذي رسا على شركتي ريجنسي وبلاك ووتر توظيف ثلاثة وأربعين رجلاً مسلحاً لحماية عملية نقل معدات إي أس أس وعمالها مدة تسعين يوماً. ولم تكن التقديرات التي قدمتها بلاك ووتر مزايدة صعبة، بل كانت مجرد تخمين بقيمة 867.033$ لتغطية البدء في العمل في الشهر الأول وحسب. ووقعت بلاك ووتر عقداً رئيساً

مـع إي إس إس في الثامن مـن آذار/ مارس وعقداً ثانوياً مع ريجنسي في الثاني عشر من الشهر ذاته.

ومـع أن العقـد الذي أبرمته بلاك ووتـر مع شركة ريجنسي كانت قيمتـه أقلَّ من 900 ألـف دولار، مـع اشتراط دفع ثلث المبلغ مقدماً، فإن الكلفة الفعلية كانت بحسب ما يتطلبه العميـل. وحدد عقد ريجنسي الوظائف الآتية: وظيفتين إداريتين من «الدرجة الأولى»، 12 شخصـاً للحرس الشخصي المرافق من الدرجة الثانية، إضافة إلى 20 عاملاً من الحرس من الدرجة الثالثة. وكان يدفع للموظف الإداري مبلغ 750 دولاراً أمريكياً في اليوم الواحد تقريبـاً؛ أما العاملون في الدرجة الثانية ممن يتمتعـون بخبرة عسكرية أو في مجال الأمن وهم الذين يقومون بالجانب الأمني فيتقاضَوْن معدل 600 دولار أمريكي في اليوم الواحد؛ ويتقاضى العاملون من الدرجة الثالثة – أي الذين لديهم خبرة أقل ويتولَّوْن مَهماتِ الدعم والمسانـدة- قرابـة 450$ إلى 500$ في اليوم الواحد. ويكسب هؤلاء جميعاً مبلغ 150$ في اليوم مقابلَ نفقات السفر أو في الأيام التي يكونون فيها تحت الطلب.

ولغايـات بيان الحساب، تقوم بلاك ووتر بإضافة نسبة حصتها من الربح إلى تكلفتها الأساسيـة من الأجـور التي تدفعها، مضيفةً إليها نفقات أخـرى لتغطية النفقات العامة، والتدريب، والمعدات، والسكن، إلى ما هنالك، ثم ترسل بيان الحساب إلى شركة ريجنسي. فتأخـذ ريجنسـي ذلك البيان وتضيـف إليه نفقاتها الخاصة، إن وجـدت، ثم تضيف إلى قيمـة البيـان نسبتها من الربح وترسلها إلى شركة إي أس أس. وتأتي شركة إي أس أس بدورهـا فتضيف إليها نسبتها الخاصة من الربح وترسلها إلى شركة كي بي آر، فتأتي كي بي آر وتضيف إليها نسبتها من الربح قبل أن ترسلها إلى الحكومة الأمريكية اعتماداً على ترتيبـات عقد لوغكاب القائمـة على التكلفة زائد الربح. ولا يوجـد هناك وسيلة مساءلة أو تدقيـق في التكاليـف أو مستوى الأداء؛ لأن كي بي آر تعـد حسابات عقد لوغكاب سرية ولا تفصح عنها لدافعـي الضرائب أو الصحافيين. كما أن قيام أحد المتعاقدين بمناقشة العمـل الـذي أنجز لمتعاقد مثل بـلاك ووتر يمكـن أن ينتج عنه غرامة فوريـة بقيمة ربع مليـون دولار، وهو شرط متفـق عليه خطياً مع كل متعاقد. وليس هناك أي حافز لتقليص طبقـات التعاقد من الباطن؛ لأن كل إضافة من نسبـة الربح تستفيد منها جهة ما. وهذا

العقـد بالتحديد يمر بأربعـة مستويات من الربح قبل أن تقدم الخدمة الفعلية، وليس من المستبعـد أن أجرة المتعاقد الأمني الذي يتقاضى 600 دولار في اليوم حين تصل إلى دافع الضريبـة الأمريكي تصبح بالآلاف، والتكلفة المقابلـة للجندي الذي يتمتع ببعض الخبرة هي 100$ إلى 250$ في اليوم. وحتى لو قام جنرال بأربع نجوم بتلك الخدمة فإن التكلفة لن تتعدى 450$ في اليوم.

ومـع أنـه قد قيل الكثير عن الأجـور المرتفعة التي يتقاضاها المتعاقـدون الأمنيون، إلا أن العقـود التي يلتزمـون بها تنص على العمـل 24 ساعة، سبعة أيـام في الأسبوع مقابل 600 دولار في اليـوم، وهـذا يعني أن المتعاقد يتقاضـى 25$ في الساعة من دون أي فوائد أو ضمانات بالتوظيف خارج نطاق مدة العقد المبرم. والفائدة الكبرى التي يجنيها الجيش الأمريكـي من استخدام المتعاقدين الأمنيين هي أن الجيش في حل من توفير تأمين طويل الأمـد على الحياة وعلـى الإصابة والإعاقـة، والتقاعد بعد الخدمـة، والتدريب، والمنافع والمكافـآت، والتأمين الصحي. فالاعتماد على المتعهديـن إذن يقدم للجيش تكلفة واحدة تدفـع مرة واحدة دون أن يصاحبها أي التزامات أخـرى قبل أو بعد تنفيذ العقد. وبذلك يكـون المتعهدون أفضل مصدر للجنود الذين يستخدمون مـرة واحدة ثم يُتخلص منهم، وهم مصدر متاح مرتفع الثمن للعضلات والحديد يمكن اللجوء إليه بسهولة حين تستدعي الحاجة، والتخلص منه بعد انقضاء تلك الحاجة.

ومع أن الشركات الأمنية الخاصة ليس لديها أي حافز لتخفيض التكلفة على الحكومة الأمريكيـة، إلا أن اختصارهـا بعض الطرق لتخفيف نفقاتهـا يمكن أن يزيد من معدلات ربحهـا. فعلى سبيل المثال، في عقد بلاك ووتر الثانوي مع شركة ريجنسي، يمكن أن يوفر استخـدام السيـارات العادية بـدلاً من الناقلات المصفحـة ربحاً إضافيـاً يقارب المليون ونصـف المليون دولار لشركـة بلاك ووتر، وقد اتفق في عقد بـلاك ووتر المبرم في الثامن مـن آذار/ مارس مع شركة إي أسـ أس على أن يتألف فريق الحماية الشخصية من ستة أشخاصـ يستقلون سيارتين مصفحتين. غير أن الاتفـاق الثانوي مع ريجنسي حذف منه شـرط السيارات المصفحة، وحذف هـذا الشرط كان مطلباً جوهريـاً لبلاك ووتر وربما توقف عليه إبرام العقد. وقبل حادثة الفلوجة، ذكرت التقارير أن جون بوتر – وهو جندي

سابق في قوات سيل – طرد من العمل بسبب إشارته إلى خطورة هذا التغيير في شروط العقد. ومع أنه قد كثر الحديث فيما بعد حول هذا القرار في الدعوى القضائية التي رفعها ذوو المتعاقدين الذين لقوا حتفهم في حادثة الفلوجة، إلا أن كل واحد من هؤلاء المتعاقدين قد وقع عقداً مغرقاً في التفاصيل التي صيغت لحماية بلاك ووتر من أي مسؤولية.

ويوضح عقد الاستخدام الذي وضعته بلاك ووتر في ثلاث وعشرين صفحة بالتفصيل عدم مسؤولية بلاك ووتر في حالة تعرض المتعاقد إلى الإصابة بجروح، أو التشويه، أو الأضرار المعنوية الناتجة عن أعمال «الإرهابيين» أو حتى «موظفي الحكومة الأمريكية». وينص العقد على قائمة مثيرة لمصادر الخطر: التعرض لإطلاق النار، الإصابة بعاهة دائمة، الموت بسبب إطلاق النار، السقوط من طائرة عادية أو مروحية، التعرض لنيران القناصة، الألغام، نيران المدفعية، قاذفات الصواريخ، الشاحنات أو السيارات المفخخة، الزلازل والكوارث الطبيعية، التسمم، العصيان المدني، النشاطات الإرهابية، الاقتتال بالسلاح الأبيض، المرض، فقدان السمع، فقدان البصر والإصابة في العين، استنشاق المواد الكيماوية والجرثومية أو التعرض لها (سواء كانت بطريق الهواء أو غيره)، الإصابة بجروح نتيجة الشظايا المتطايرة. ويحدد العقد صراحة أن المسؤولية عن التأمين تقع على المتعاقد، والطريق الوحيد الذي يمكن للمتعاقد أن يقاضي فيه الشركة بلاك ووتر هو التأمين بموجب قانون الدفاع الأساس، وربما بعض النجدة من الجيش الأمريكي إذا حوصر المتعاقدون وسط الزحام، إلا أن احتمالات الحصول على مثل هذه المساعدة تبقى بعيدة وغير متوافرة في المناطق المحفوفة بالمخاطر.

كانت بلاك ووتر تتولى القيام بالخدمات التي كانت تقوم بها شركة كونترول ريسكس غروب (سي آر جي)، حيث قررت هذه الأخيرة الانسحاب من عملياتها الأمنية في الثامن عشر من آذار/ مارس، على أن يجري استكمال جدول انسحابها الكامل من العراق بحلول التاسع والعشرين من الشهر. ومدة الثلاثين يوماً المنصوص عليها في عقد بلاك ووتر الأصلي للبدء بتنفيذ العقد كانت ستترك شركة إي إس إس دون تغطية أمنية من الثامن والعشرين من آذار/ مارس حتى الثامن من نيسان/ إبريل. ولما كان كل يوم يمضي في انتظار البدء بتنفيذ العقد يعني خسارة في الربح، فقد قامت بلاك ووتر بخفض مدة

التحضيرات اللازمة للبدء بتنفيذ العقد؛ كي تبدأ العمل في الثاني من نيسان/ إبريل. وحين تبين أن شركة إي أس أس ستحتاج إلى فريق حراسة لمرافقة نقل بعض معدات الطهي في الثلاثين من مارس. بذلت إدارة بلاك ووتر قصارى جهدها لإرسال فريق الحراسة في الموعد المبكر، وجرت العادة في الأوضاع التي تنتقل فيها مهمة الحراسة من شركة إلى أخرى أن يمضي الفريق الجديد بضعة أيام في مرافقة الفريق القديم؛ لكي يطلع على التضاريس ومواطن الأخطار التي يمكن أن يواجهها، غير أنه وبسبب الجدول الزمني المضغوط، جرى وضع فريق بلاك ووتر للعمل منذ اليوم الأول، ولم تتح لهم فرصة التعلم والاستفادة من خبرة سي آر جي.

إضافة إلى ذلك، تتطلب إجراءات العمل الصادرة عن وزارة الخارجية إشعاراً لا يقل عن أربع وعشرين ساعة قبل التحرك، وذلك للقيام بتحضيرات متقدمة مثل استطلاع الطريق المزمع استخدامه، والنظر في طريق بديل، ووضع تعليمات للإخلاء، وكتابة تقرير مفصل للمتعاقدين الأمنيين وعادة ما تكون في شكل مستند باور بوينت مرفقة بمنشور وشفرات للاتصال. وما حدث في هذه المرة كان شيئاً مختلفاً. وكبقية الكوارث التي يمكن تجنبها، فإن سلسلة من الأخطاء الصغيرة والكبيرة أفضت إلى القتل العنيف الذي لقيه سكوت هيلفنستون، ومايك تيغو، و ويسلي باتالونا، وجيري زوفكو.

يمثل هؤلاء الرجال الأربعة شريحة قياسية لخليط العاملين في بلاك ووتر؛ فأكبرهم سناً وهو ويسلي باتالونا كان يبلغ من العمر 48 عاماً، وله خبرة 20 عاماً في الجيش الأمريكي، وتقاعد برتبة رقيب في قوات الرينجرز، وهو من السكان الأصيلين لجزيرة هاواي. وقد كان ويسلي يعمل حارساً أمنياً في قرية سكنية تدعى (قرية هيلتون ويكولوا) الواقعة في القسم الأكبر من جزر هاواي، حين بدأت الحرب العراقية، وتذكر التقارير أنه كان ينوي البدء في برنامج لمساعدة الشباب ذوي السلوك المنحرف، وكان بحاجة إلى مبالغ كبيرة من المال لسداد أقساط منزل والده المريض؛ كي يحول دون استرداد شركة التمويل العقاري له وبيعه بالمزاد العلني، وهما أمران يحتاجان إلى مبالغ طائلة من المال لم تكن متوافرة لدى ويسلي. وبعد خروجه من الخدمة العسكرية قبل عشر سنوات، شدّ إغراءُ العودة إلى العمل العسكري ويسلي إلى عالم الشركات الأمنية الخاصة، وبرز

باتالونا ذو الشعر الفضي والجسم الرياضي اللائق فوق أقرانه من المتعاقدين في العراق، ليس بسبب تقدمه في العمر، بل لنزوعه إلى لبس القمصان الهَوَّاييّة[1] ذات الألوان الزاهية في أثناء الخدمة. وفي الوقت الذي لقي فيه حتفه، كان قد مضى على عمله في العراق مع شركة بلاك ووتر شهران. وكان يعمل قبلها في عقد مع شركة إم بي آر آي في ربيع عام 2003. وفي هذه الشركة تعرّف ويسلي إلى زميله جيركو جيرالد المعروف بلقب (جيري) زوفكو، وهو الأصغر سناً في المجموعة، ويبلغ 32 عاماً من العمر.

ينحدر زوفكو من أصل كرواتي، وهو من مواليد مدينة كليفلاند بولاية أوهايو في الولايات المتحدة، وقد التحق بالجيش عام 1991 وخدم في وحدة الشرطة العسكرية 82- في مدينة فورت براغ، ثم اجتاز بنجاح متطلبات الالتحاق بقوات الرينجرز- ولكنه لم يلتحق بالمعهد. كان زوفكو شاباً بديناً، يبلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات (192سم)، ويزن 235 باوناً (106.5 كيلو غرام)، وخدم مع الجيش الأمريكي في كرواتيا، وحين شارفت خدمته على الانتهاء، قرر زوفكو أن يتحوّل إلى مهنة جديدة أكثر متعة من وظيفة الحارس الأمني أو نائب شريف المدينة. وفي نهاية عام 1997، بدأ عمله متعاقداً أمنياً مع شركة دينكورب في قطر، وتعلم اللغة العربية في أثناء وجوده في الشرق الأوسط، ثم انتقل إلى العمل مع إم بي آر آي في خريف عام 2003 للقيام بتدريب الجيش العراقي في كيركش. ونشأت أواصر صداقة بينه وبين باتالونا، حيث جمعت بينهما المهمة الصعبة في تدريب الجنود العراقيين الذين يفتقرون إلى التنظيم، والمعنويات العالية، والخبرة. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، توجه الجنود العراقيون إلى بيوتهم في إجازة لقضاء شهر رمضان مع ذويهم، ولكن عدداً قليلاً منهم عاد إلى الجيش؛ ولعل ذلك كان بسبب خوفهم من القتل على يد المقاومة العراقية، أو بسبب نفورهم من التدريب الشاق والمجهد على يد المتعاقدين. وبدأ باتالونا وزوفكو بالبحث عن فرص عمل جديدة، فعملا معاً في شركة كوشايز (حيث فصل الاثنان من العمل بعد وقت قصير) ومن ثم انتهى بهما المطاف إلى بلاك ووتر.

1- نسبة إلى جزر «هاواي» وهذه اللفظة العربية الشائعة لهذه الجزيرة تؤدي إلى خلط في اللفظ لا يطابق الطريقة التي تلفظ بها في الإنجليزية، وتلفظ بالإنجليزية بثلاثة مقاطع مع تشديد نبرة الصوت على المقطعين الأوسط والأخير هكذا «هَوَّايِي»؛ لأن الكلمة تكتب هكذا (Hawaii).

ضـم الفريق الهالـك جندياً سابقاً آخـر من قوات الرينجر هو مايـكل -آر- (رجل الثلج) تيغ، حيث كان رأس الحربة في فوج سوار المئة وستين (وسوار هي اختصار الفوج الجـوي للعمليات الخاصـة) المتمركز في مدينة فـورت براغ بولاية كارولينـا الشمالية. أمضى تيغ 12 عاماً في الجيش، وخدم في بانامة، وأفغانستان، وهو رب أسرة ينحدر من مدينـة كلاركسفيل بولاية تينيسي. وقد تقاعد من وقت قريب، وقرر أن يصبح متعاقداً أمنيـاً بعد أن وجـد صعوبة في تأمين عمل يعيل به زوجه وابنه عدا العمل بوظيفة حارس شخصـي بأجر متدن. وبوصفهم جميعاً مـن الجنود السابقين، فقد نشأت بين باتالونا، وزفكـو، وتيـغ علاقـة قَبَليَّة تحتـاج إلى مترجم خاص لتفسـير مفرادتهـا، وتكتيكاتها، واصطلاحاتها المختصرة.

أما العنصر الغريب في الفريق فكان سكوت هيلفنستون. حيث سحب من فريقه القديم المكون من عناصر سابقة من قوات سيل، وطلب منه في اللحظة الأخيرة أن يحل محل أحد الذين تغيبـوا من عناصر الفريق الذي لقي أفراده حتفهم في الفلوجة. أدرك هيلفنستون أن فريقـه الجديد يفتقـر إلى الترابط بين أعضائه؛ إذ يعرف عـن أفراد الرينجرز أنهم يحبـون التآزر معاً، وينظرون إلى عناصر قوات سيـل بوصفهم صبية منعمين لا يحسنون التصرف في الظروف الصعبة. والآن أصبح بينهم فرد ليس له خبرة في القتال ولكنه يمثل النمـوذج التقليدي الأمثل في قوات سيل. لقد كان ستيفن «سكوت» هيلفنستون والبالغ من العمـر 38 عاماً من أفراد قوات سيل ذوي الشهرة والنجومية؛ إذ عمل مستشاراً عسكرياً في بعض أفلام هـالي وود الكبيرة مثل فيلـم (فيس أوف) (المواجهـة)، ومن بين نجوم هـذا الفيلـم جون ترافولتـا، وفيلم (النينجا الثلاثـة). وظهر كذلك علـى الشاشة حيث مثـل دور مـدرب لقوات سيل في فيلم ريـدلي سكوت 1997 جي آي جـين. وكان سعيه إلى الشهرة إضافة إلى مظهره الحسن سبباً في ظهوره نجماً في برنامج مارك برينت للدراما الواقعيـة المرتجلة واسمه مهمـة حربية، وهي لعبة صراع بقـاء في مواجهة جنود سابقين ورجال شرطة . وفي برنامج رجل في مقابل وحش، حيث سابق القردة، وكان وجهه مألوفاً لأي شخصـ يشاهـد برامج التلفاز التي تبث بعد منتصف الليـل، حيث كان يعمل مروجاً لمعـدات التمارين الرياضية، كما أنه أنتج سلسلة من أفلام التمارين الرياضية على غرار

تمارين قوات سيل. وكانت أبرز عوامل نجاحه في البيع، شعره الأشقر، ومنظره الحسن، وابتسامته العريضة، وعضلات ساعديه المفتولة. وكان العاملون الذين خدموا في الشركة مدة طويلة يستغربون من عدم ذهاب «سكوتي بود» إلى فريق الحرس الشخصي لبول بريمر، أو كما يسمى في أوساط المتعاقدين «فريق الفتية الوسيمين».

وبحلول عام 2001، كان سكوت يعاني أزمة مالية خانقة، حيث توقفت مهنته في التمثيل، كما أن أشرطة اللياقة والتمارين الرياضية التي أنتجها لم تنتج دخلاً يكفي لتغطية نفقات الدعاية والإعلان التي أنفقت عليها؛ فاضطر سكوت إلى إشهار إفلاسه وبيع منزله في كاليفورنية والعمل بوظيفة حارس أمني في تجمع للمباني. ومع دخل سنوي يقل عن 15 ألف دولار في السنة، وإعالة اثنين من الأولاد بالإضافة إلى زوجه، كان وضعه الشخصي في حالة يرثى لها؛ فقرر سكوت أن يتقدم بطلب للعمل لدى بلاك ووتر، فَقُبِلَ طلبه على الرغم من السياسة المتبعة في بلاك ووتر بعدم توظيف الأشخاص الذين يعانون من صعوبات مالية، وقد قام مدير الشركة غاري جاكسون، وهو نفسه ضابط سابق في قوات سيل، بالالتفاف على أنظمة وتعليمات الشركة في سبيل قبول طلب سكوت، وهذا أمر غير مستغرب. فالجنود السابقون يدركون جيداً صعوبة الحياة خارج الجيش، كما أن هناك شعوراً بالاعتزاز توفره بلاك ووتر في الفرصة الثانية التي يُسْمَحُ فيها للجندي السابق بالعودة إلى الإثارة والمغامرة، والعمل مع الرفاق السابقين، وخدمة المجتمع. أما حقيقة أن المتعاقدين يقدمون على العمل في ظروف محفوفة بالمخاطر لأسباب مالية فلا تجري مناقشتها، ولكنها تقدم حافزاً ظاهراً للمتقدم للعمل لإلقاء نظرة سريعة على العقد والتوقيع فوق الخط المنقط. وها هو سكوت يوشك على تحقيق الشهرة التي طالما كان ينشدها، ولكنها هذه المرة في فيلم واقعي درامي مرتجل، جرى بثه على شاشات التلفاز حول العالم.

التحق هيلفنستون بالعمل في شركة بلاك ووتر مطلع آذار/ مارس من عام 2004، وتلقى تدريباته في المركز الرئيس للشركة في مويوك في نورث كارولينا، ثم أرسل إلى الكويت ضمن فريق الأمن والحماية في عقد شركة إي أس أس، وكانت فاجعة أسرة هيلفنستون هي الأشد؛ لأن سكوت لم يكن مفترضاً أن يكون في المكان الذي لقي فيه منيته.

كان من المقرر أن يكون تي-بوي الجندي السابق في قوات المارينز من ولاية كاليفورنية والبالغ من العمر 37 عاماً، ضمن فريق أربعة الرجال الذين لقوا حتفهم في الفلوجة. ولكن فاته اللحاق بالفريق بسبب تأخر طائرته المتوجهة إلى الكويت. ويقول تي بوي: «في الوقت الذي توجهت فيه إلى الفندق، كان فريق «نوفمبر - 1» في طريقه متوجهاً إلى بغداد؛ فَحَلَّ سكوت هيلفنستون محلي بسبب تأخري، وقتل بعدها بيومين، وقد أبدى عدد من الأشخاص امتعاضهم مني لبعض الوقت بعد ذلك الحادث. إنهم لم يفهموا ما حدث لرحلتي الجوية، وكل ما يعرفونه هو أن صديقاً عزيزاً على قلوبهم قتل بدلاً مني حين حل مكاني في الفريق الذي لقي جميع أفراده الموت.

ويلاحق كابوس مرعب تي بوي حين يستحضر حادثة القتل المروعة في ذهنه ممزوجة ببعض الشعور بالذنب: «ظن بعض الأشخاص الذين يعملون معي أنني لم أعد صالحاً للعمل هنا بسبب عدم الاستقرار النفسي، وحاولوا فصلي من العمل. ولا أحد يعرف كيفية التعامل مع الموت إلا بعد أن يقع. وها أنا الآن، بعد سنة من الحادثة، مازلت في العراق، وأقوم بما أعتقد أنه العمل الصحيح».

كان المدرب الذي درب سكوت في مقر بلاك ووتر في مويوك هو جستن (شرك) ماكوان، وهو جندي سابق من قوات المارينز، وكان ترقى من منصب مدرب إلى منصب مدير مشروع تنفيذ عقد إي أس أس في الكويت. وفي أثناء مدة التدريب شجرت مشاحنة وخصومة بين سكوت وجستن واستمرت هذه العداوة بينهما في الكويت. وحين تأخرت طائرة تي- بوي وتغيب عن موعده، اختار «شرك» أن يضع سكوت محل تي-بوي في فريق «نوفمبر - 1» المتوجه إلى العراق. وبينما كان سكوت يتناول عشاءه في وقت متأخر من الليل في الثامن والعشرين من الشهر، جاء شرك إليه، وطلب منه أن يحزم متاعه ويستعد للتوجه إلى بغداد في الساعة الخامسة صباحاً. في البداية حاول سكوت التملص من هذه المهمة مدعياً بأن صحته معتلة. ومع أن متعاقداً آخر تطوع للذهاب مكانه، إلا أن شرك جاء إلى غرفة سكوت وبدأ يوبخه ناعتاً إياه بالجبان والخائر، ثم صادر سلاحه صارخاً في وجهه بأنه مفصول من العمل. وكانت تلك المواجهة كافية لدفع سكوت إلى إرسال رسالة إلكترونية إلى المقر الرئيس لبلاك ووتر، وصف فيه ما حدث وطلب منهم التدخل. وحين

جـاء الصبـح ولما يتلق سكوت أي رد مـن المقر الرئيس للشركة علـى رسالته الإلكترونية، حزم أمتعته وتوجه إلى بغداد.

كانـت مهمـة فريق «نوفمبر - 1» هـي مرافقة قافلة من الشاحنـات التابعة لشركة إي أس أس تحمل معـدات وأدوات طبخ من تاجي إلى معسكر ريجوي، وكان عليهم بصفتهم حراسـاً مرافقـين أن يراقبوا أي حركـة مريبة أو أي شيء غريب وغـير طبيعي في طريق القافلـة، وردع أي هجوم على القافلة، وإذا حـدث اشتباك، فعليهم أن يشغلوا العدو حتى تتمكـن القافلة من الانفلات. كانت أسلحتهـم مكونة من بنادق إم - 4 ومسدسات غلوك، وهـي أسلحة اعتـادوا استخدامها في الجيش، غير أنهم لم يكونـوا على معرفة بتضاريس المـكان، ولم تكن لديهم فكـرة عمن هو العدو، ولا عن مكانه. وهـذه معلومات لا يمكن أن تتأتـى إلا بالخـبرة والتجربة. لقد كان فريق «نوفمـبر - 1» فريق حراسة عادي مؤلف من رجـال ذوي خبرة وما يكفي من المهارة لإخراجهـم من أي ورطة ولكنهم لم يسبق لهم أن عملـوا معاً، وكانوا يفتقرون إلى التلاحم فيما بينهـم. إضافة إلى ذلك، كانوا يعانون من نقصـ العـدد. ومع أنه كان باستطاعة بـلاك ووتر أن ترسل فريقاً مكونـاً من ستة رجال جريـاً مـع بنود العقد المبرم مـع إي أس أس، الذي يشـترط أن يتألف فريق الحراسة من ستة أشخاص على الأقل، إلا أن المدير في بغداد توم باول قرر أن يرسل في ذلك اليوم فريق حراسة مكوناً من أربعة رجال فقط.

ومـن بين جميع الخيـارات التي مارستها إدارة بلاك ووتر وثارت حولها الشكوك، كان قرار إرسال فريق حراسة مكون من أربعة أشخاص هو أكثر ما أزعج تي-بوي. «إن مسألة أربعـة رجـال لا تزال لغزاً محـيراً لي حتى هذا الوقـت: كانت كل الفـرق مكونة من ستة رجـال، وخفض هذا العـدد إلى أربعة هو قرار اتخذه توم بـاول، وإرسال فريق إلى العمل بهـذا العدد حدث مرتـين في أثناء عملي مع بلاك ووتر. وكان فريق «نوفمبر - 1» هو المرة الثانيـة. في المـرة الأولى كُلّف فريقي بمهمة التوجه إلى الحـدود الأردنية لاستقبال واحد أو أكـثر من الشخصيات المهمة ومرافقتهم إلى بغداد... تأخرت أنا وعامل آخر بأمر من تـوم باول فيما توجه بقية الفريق لإتمام المهمة. قيل لنا إنَّنَا سنساعد توم في التحرك إلى مـكان ما، وأنه كان بحاجة إلى بعض الأشخاص لمساعدته. وظننت أن شخصين آخرين

من الفريق الآخر كانوا سيقدمون المساعدة، ولكنّ ذلك لم يحدث... واليوم يدرك الجميع أنه كان من الجنون أن يقترح أحد القيام بتلك الرحلة في ظل تلك الظروف»

تقضي أدنى متطلبات الفريق الأمني الذي يرافق القوافل أن يكون في كل سيارة مرافقة سائق وقناص في المقعد الأمامي وقناص في المقعد الخلفي للحفاظ على مسافة بين القافلة وبين السيارات التي تسير خلفها وللتعامل مع أي شخص يحاول تتبع القافلة. وجعل رجلين اثنين في السيارة الواحدة يعني أن السائق عليه أن يراقب الجهة الواقعة أمامه وعن يمينه والجانب الخلفي إضافة إلى قيادة السيارة. وحتى لو كان السائق يملك عيناً ثاقبة وسرعة في الرد، إلا أن بندقيته لن تكون جاهزة، بل تكون موضوعة في حجره، ومسدسه على جنبه. وعلى القناص الجالس إلى جانبه أن يراقب الجانب الأيمن كاملاً إضافة إلى المؤخرة. ولكن لا يمكنه التعامل مع خطر إطلاق النار القادم من المقدمة. وهذا الوضع يجعل السيارة مكشوفة لكمين يأتي من المؤخرة على شكل هجوم كر وفر ولإطلاق نيران مستمر إذا كان على المتعاقدين الإسراع في سيرهم. إن وجود سيارة أخرى وبداخلها اثنان من الرجال ليس له أثر في مضاعفة فاعلية القوة ولكنه يوفر سيارة للفرار أو للوقوف المزدوج بجانب السيارة الأولى لإطلاق النيران إذا ما تعرضت إحدى السيارات لإطلاق نارَ طرفٍ معادٍ.

وفي مخالفة أخرى لمواد العقد بين بلاك ووتر وإي أس أس. وكما ذكرنا آنفاً، فإن فريق «نوفمبر - 1» لم يكن يستخدم سيارات مصفحة، وهناك جدل حول أفضلية استخدام السيارات المصفحة على السيارات غير المصفحة. والحقيقة أن ثمة إيجابيات وسلبيات لكل نوع؛ فالسيارات غير المصفحة تمكّن الفريق من إطلاق النار من النافذة المفتوحة وملاحقة السيارات المهاجمة، كما أنها توفر درجة عالية من الوعي بما يدور خارج السيارة؛ وذلك لسهولة سماع الأصوات القادمة من الخارج. أما السيارات المصفحة فيتطلب الأمر فتح الباب جزئياً لسماع ما يجري في الخارج؛ لأن النوافذ ذات الزجاج المقاوم للرصاص تكون محكمة الغلق، ولا يسمع الصوت من ورائها. وتستخدم بلاك ووتر سيارات باجيرو بعد أن قامت على عجل بإضافة صفيحة حديدية على الواجهة الخلفية لتوفير الحماية للقناص الجالس في المقعد الخلفي. غير أن هذا الإجراء لم يكن له أي نفع؛ لأن القناص في فريق «نوفمبر - 1» اختار الجلوس في المقعد الأمامي.

وتذكر التقارير أن بلاك ووتر كانت تريد أن تبرهن لشركة إي أس أس أنها قادرة على مواجهة التحدي في هذا الجدول الزمني المضغوط، ويبدو أن الإدارة كانت تحت ضغط مكثف لإرسال الرجال. وقد أدرك تي-بوي بعد وصوله الكويت حجم المخاطر التي قبلت بها بلاك ووتر في سبيل جعل الفريق جاهزاً للعمل وتشغيله قبل الوقت المحدد. وكان الافتقار إلى الموارد والرجال هو القضية التي يدور حولها أكثر النقاش. لقد كان بعض أعضاء الفريق أكثر خبرة من بعضهم الآخر، إلا أن الشعور العام لدى المتعاقدين هو أن هذا العقد سيكون مآله الهلكة... وبعد ما تبين لي الآن، فإنني لن أقبل بالعمل في مثل هذه الظروف مرة أخرى. لم يكن لدينا القيادة الصحيحة ولا المعدات الصحيحة لإنجاز المهمة. كنا نتحرك بسرعة، ولم يسبق لأكثرنا أن مر بظرف كهذا. كان التدريب مختصراً في ذلك الوقت، وكنا نستخدم أسلحة شبه آلية، ولم يكن لدينا بنادق آلية. على خلاف ما ينص عليه العقد. وكذلك كانت سيارتنا غير مصفحة بخلاف ما ينص عليه العقد. لم يكن هناك ما يكفي من الترابط بين أعضاء الفريق بما يسمح بوضعهم في مناطق معادية وإنجاز المهمة بسرعة. ويبدو لي أن ما كان يشغل بال القائمين على الشركة هو الجدول الزمني، ونحن جميعاً نعلم ما يعنيه ذلك: إنّه يعني الدولارات. كان الاستعجال، الاستعجال، الاستعجال، هو سيدَ الموقف منذ البداية. لم يكن أمامنا فرصة حقيقية للنجاح».

بدأت أول قوة أمنية مرافقة لشركة إي أس أس عملها قبل أيام من موعد البدء بتنفيذ عقد بلاك ووتر، إذ كان باول يرسل قوات حراسة رمزية لا يمكنها حماية نفسها، فكيف بحماية الشاحنات الكبيرة التي أبرم العقد لحمايتها؟. أي إنَّه كان يوفر حماية اسمية وليست فعلية، وقرر باول إرسال فرق ناقصة العدد والعتاد ليس إلى «منطقة» محفوفة بالمخاطر بل إلى «عمق» أكثر المناطق خطراً في العراق، ذلك أن المناطق المحيطة بالفلوجة كانت في ذلك الوقت مشهورة بأنها قاعدة انطلاق المقاومة المعادية للوجود الأمريكي في العراق.

في ربيع عام 2004، وبعد عام واحد من الوجود الأمريكي في العراق، كان العنف يتطور إلى درجة الفوضى مع تزايد عمليات الخطف والهجمات المسلحة. وانتشرت مشاعر الغضب لدى سكان المثلث السني تحديداً بعدما تبين أن الولايات المتحدة لم تستطع

التخفيف من موجة العنف، بل ظهرت من الناحية الفعلية أنها تزيد من حنق المقاومة بما تصدره من «أوامر» تعزز من شعور العراقيين بأنهم يعيشون تحت احتلال عسكري أمريكي. وبدأت النظرة إلى الأمريكيين بوصفهم قوة اضطهاد تحل محل النظرة التي تراهم قوة تحرير.

وكانت الفلوجة، إلى جانب الرمادي وغيرها من مدن المثلث السني، قلاعاً حصينة للمقاومة العراقية الآخذة بالتوسع بسرعة، وكانت عصابات الخطف، والمقاومة، والبعثيين السابقين يستخدمون الفلوجة قاعدة انطلاق لعملياتهم. وفي مطلع شهر آذار/ مارس، اتخذت قوات المارينز من فرقة المظليين 82 مواقع لها حول ضواحي المدينة، غير أن سياستهم كانت تقضي بعدم الدخول في معارك قتالية داخل المناطق السكانية وسط الفلوجة. وعمدت بدلاً من ذلك إلى توجيه تركيزها على قطع الطرق الخارجية على المقاومة والقيام بعمليات استطلاع بأعداد كبيرة. وفي التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وقعت حادثة قام فيها الجنود الأمريكيون بإطلاق النار على مجموعة من المتظاهرين، وهي الحادثة التي يشير إليها قادة المدينة بوصفها الشرارة التي كانت وراء الاحتفال الدموي الذي أبداه سكان البلدة بعد موت المتعاقدين. حيث خرج سكان الفلوجة إلى الشوارع احتجاجاً على احتلال الجيش الأمريكي أمام مبنى يعود لإحدى مدارس المدينة، ولكن الجنود يقولون: إنه كان بين المتظاهرين من يحمل السلاح. ولقي سبعة عشر من سكان الفلوجة حتفهم في تلك الحادثة.

لاحظ سكان الفلوجة إلى جانب الوجود العسكري الأمريكي، أن ثمة مجموعات من رجال أجانب تبدو عليهم ملامح الجنود ولكنهم بملابس مدنية يروحون ويجيئون في المنطقة ويقومون بأعمال تدعم الاحتلال الأمريكي. ويمكن تحديدهم بسهولة من نظاراتهم الشمسية، وشعرهم القصير، وملابس السفاري التي يلبسونها، وأكثر من ذلك من أسلحتهم. حيث كانوا ينتقلون من القواعد العسكرية إلى الفنادق في العراق مستقلين حافلات حنطية اللون أو سيارات بيضاءَ رباعية الدفع، شاهرين سلاحهم بأسلوب استفزازي للمحافظة على مسافة طويلة بين قوافلهم وبين العراقيين العاديين، وكانت الفكرة الشائعة في الشارع العراقي أن هؤلاء هم عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وأعوانهم من المرتزقة،

ولم يكن لـدى سكان الفلوجة أدنى اهتمام بالتمييز الدقيق بين العسكريين الحقيقيين وبين المتعاقدين العسكريين من المدنيين؛ فهم كلهم العدو.

وفي التاسـع والعشرين من آذار/ مارس، مكـث فريق الأول من «نوفمبر - 1» في فندق قـديم في بغداد كانـت بلاك ووتر تتخذه مقـراً رئيساً لها في العـراق. وفي اليوم اللاحق، كان مقرراً أن يتجهوا إلى مدينة تاجي شمالي بغداد، لملاقاة ثلاث شاحنات فارغة تابعة لشركـة إي أس أس ومرافقتها إلى معسكر ريجوي، إلى الغرب من بغداد والفلوجة، لنقل بعضـ أدوات الطهي. ويعتقد تي-بوي أن الرجال كانـوا يعلمون أنهم غير مستعدين تمام الاستعـداد لهذه المهمة: «إنني أعلم أن ويسلي، وجيري لم تكن لديهما رغبة في تنفيذ هذه المهمـة، وقد سمعت أنهما أبديا معارضتهما لهذه المهمة لتوم باول، وأعتقد أن ذلك حدث في الليلة السابقة، غير أنهما –طبعاً– استمرا في العمل ونفذا ما طلب منهما».

عمل باتالونا وزوفكو في المنطقة قبل تلك الحادثة، غير أن هيلفنستون وتيغ لم يسبق أن وطئت قدماهما تلك المنطقة. ويبدو أن الرجال الأربعة كانوا يجهلون طريقة سير الأمور، ويذكـر أحد المصادر في بلاك ووتر أنهم في الليلة السابقة للحادثة، سأل الرجال موظفي الاستقبال في الفندق عن كيفية الوصول إلى المنطقة التي يقصدونها. وقد ثار جدل واسع في الـرأي العام الأمريكي حول التقارير التي ذ كرت بأن المتعاقدين قد دخلوا إلى منطقة غـير مألوفة لهم ومحفوفة بالمخاطر إلى أبعـد حد دون أن يكون معهم خريطة ترشدهم. وفي حـين يعلم تي-بوي أن الإدارة في بـلاك ووتر لم تعط الفريق خريطة، إلا أنه يجد من الصعـب التصديق بـأن الرجال بدؤوا رحلتهـم من دون أن يكون معهـم خريطة للطريق للاسترشاد بها من مصدر آخر.

«نقلـت التقاريـر أنه لم يكن معهم أي خريطة للمنطقة، ولسـت متيقناً من صحة هذا القول؛ أي إن كانوا قد حصلوا على خرائط للفلوجة من مصدر آخر. إنني أعلم أن بلاك ووتر لم تعطهم أي خرائط؛ لأنه قيل لنا في السابق: إنهم لا يملكون خرائط لتلك المنطقة. ولم يكـن قولهم هـذا صحيحاً، بالطبـع، لأنني أنـا شخصياً وجدت عـدة خرائط لمدينة الفلوجـة في اليـوم الذي وقعت فيـه الحادثة- ولكن قبل أن نعلم مـا كان يحدث- من بين عـدد كبـير من خرائط العراق والمنطقـة بكاملها. وقد كلفت في ذلـك الصباح بفرز تلك الخرائـط، ومع علمي ممـا قيل لنا بأنهم لا يملكون خرائط لمدينـة الفلوجة، فقد دهشت

حـين وجدت تلك الخرائط». ولم يفكـر تي-بوي بتلك الخرائط إلى حـين قرأ الاتهامات التي وجهتها أسر المتعاقدين الذين قتلوا في تلك الحادثة.

وصل فريق الأول من «نوفمبر - 1» إلى تاجي لملاقاة شاحنات إي أس أس ولكنهم ضلوا طريقهـم حين كانوا يحاولون العثـور على طريقٍ يوصلهم إلى معسكر ريجوي. وبحسب ما جـاء في الدعـوى التي رفعهـا ذوو المتعاقدين القتلى على بلاك ووتر، فـإن القافلة توقفت في معسكـر الفلوجـة، وهـي قاعدة عسكرية على بعـد خمسة كيلومـترات إلى الشرق من الفلوجـة، حيث أمضوا ليلتهم هناك، مـع أن بعض التقارير غير الموثقة تذكر أنهم ذهبوا إلى أحـد الفنـادق. غـير أن المعروف علـى وجه مؤكد هـو أنهم انطلقـوا في صباح اليوم اللاحـق الموافـق 31 من آذار/ مارس متجهين غرباً على الطريـق يأخذهم مباشرة إلى قلـب المناطق المعاديـة في الفلوجة. حيث استقل باتالونا وزوفكـو سيارة الباجيرو الزرقاء في مقدمـة القافلة، في حين استقل هيلفنستون وتيغ سيـارة الباجيرو الحمراء في مؤخرة القافلـة المكونة من خمس مركبات. ولو كان فريق الحراسة يدرك فداحة الخطر المُقْدِم عليـه في وسط الفلوجـة؛ لسلكوا الطريق المباشر الدائري حـول الفلوجة وإن كان سيأخذ منهـم ساعتين إضافيتين في القيادة. وعلى كل حال، فهم إما أنهم كانوا يجهلون الخطر، أو أنهم كانوا يظنون أن باستطاعتهم اجتيازه.

ومـن عـادة القوافل أن تتجنب المـرور بالمناطق السكانية المأهولة مـا أمكن، ولا سيما المناطـق المعادية كالفلوجة؛ لأن الشـوارع المحاطة بالبنايات هي أفضـل غطاء للقناصة، كما أنه يسهل سد المنافذ التي يمكن الفرار منها إذا وقعت القافلة في كمين. وتقول إحدى النظريات التي تفسر ما حدث: إن القافلة كانت تنوي الانضمام إلى فريق من قوات الدفاع المدني العراقي الأمريكي التدريب عند المدخل الشرقي للمدينة وذلك لمرافقتهم في اجتياز وسـط المدينة وتعزيز القوة النارية للقافلة فيما لو تعرضت للهجوم. غير أن هذه الخطوة تتطلـب ترتيبـاً من الليلة السابقة، ولا يوجد دليل علـى أن المارينز في معسكر الفلوجة، أو أن المتعاقديـن أنفسهم قـد تقدموا بهذا الطلب. ويرى تحقيق داخلـي خاص غير منشور قامـت به بلاك ووتر بعد الحادثـة أَنَّ المتعاقدين غادروا معسكر الفلوجة سالكين الطريق السريع 10 حتى وصلوا إلى المنظر القبيح للمنطقة الصناعية الشرقية في نهاية الفلوجة، حيـث توقفوا عند نقطة تفتيش تابعة لقوات الدفاع المـدني العراقية نحو الساعة التاسعة

صباحـاً بحسب ما جاء على لسان أحد كبـار المسؤولين في شركة بلاك ووتر، ويدعم هذه النظريـة اتصال هاتفي أجراه المتعاقدون مع المقـر الرئيس لبلاك ووتر في بغداد وكذلك شهادة شهود عِيان.

وعلـى ما يبدو، فإن حافلتـين تابعتين لقوات الدفاع المـدني العراقي مملوءتين بأفراد تابعين لتلك القوات يلبسون الزي الموحد الحنطي عرضوا عليهما مرافقتهما إلى وجهتهم المقصـودة، فتوجه الجميع في طريق بديل عبر الازدحام المروري في الفلوجة. وبحسب ما يقولـه شرطـي عراقي كان يعمل علـى التقاطع الرئيس المـؤدي إلى وسط المدينة في ذلك الصبـاح، أن فريق بـلاك ووتر توقف لسؤاله عن إرشـادات الطريق إلى معسكر ريجوي، وهـو مـا يوحي بأنهم ربما كانوا غـير واثقين بنوايا قوات الدفاع المـدني العراقي المرافقة لهـم. ثـم تابعت القافلة مسيرها نحو المدينة ثم توقفت عشـر دقائق بعد أن قطعت ثلاث مئـة ياردة من التقاطـع بسبب الازدحـام المروري. وفي نحـو الساعة التاسعـة والنصف صباحاً، بدأت السيارات بالتحرك، وواصلت القافلة المكونة من ثلاث شاحنات مرسيدس حمراء، وسيارتي الباجيرو التابعتين لشركة بلاك ووتر، وشاحنتين تابعتين لقوات الدفاع المـدني العراقي، حركتها ببطء. وكانت الشاحنتـان العراقيتان تتقدمان القافلة وخلفهما باتالونا وزوفكو، في حين كان تيغ هيلفنستون في حماية المؤخرة.

وبعد ميل ونصف الميل داخل الفلوجة، وفي الوقت الذي كانوا يسيرون فيه على الطريق السريع - 10 صوب قلب المدينة، توقفت الشاحنتان العراقيتان فجأة. ونتيجة لذلك توقفت القافلـة بكاملها. حينئذ، ومن غـير تأخير، برزت من السوق المجاور مجموعة من الشبان الملثمـين بالكوفيات العراقية يحملـون بنادق إي كي – 47 وبدؤوا من فورهم بإطلاق النار باتجـاه المتعاقدين من الخلف. ومن تلك المسافة القريبة، اخترقت الرصاصات من حجم 7.62 ملـم الزجاج وحديـد السيارات الرقيـق لتستقر في أجساد المتعاقديـن في السيارة الخلفية. ولم يملك هيلفنستون وتيغ أي فرصة للرد.

استدار سائقو شاحنات إي أس أس الذين أصابهم الذعر من أصوات إطلاق النيران حـول سيارة الباجيرو التي كانـت في المقدمة ولاذت الشاحنتان العراقيتان بالفرار. وعلى إثـر سماع باتالونـا وزوفكو صوت إطلاق النار استدارا بالسيـارة إلى الخط المقابل لأخذ

موقع للرد والتعامل مع الموقف. غير أنَّ وابلاً من رصاص المقاومة اخترق جسديهما قبل أن يسددا سلاحهما. وبعد إصابتها بالرصاص من مدى قريب، تسارعت السيارة واصطدمت بسيارة تويوتا بيضاء كانت تسير بسرعة عالية، ثم توقفت بعد أن التحمت بمقدمة السيارة المصدومة. لقي الرجلان مصرعهما بعد أن اخترق الرصاص رأسيهما وأطرافهما، وبدأ مصور عراقي بتصوير المشهد بعد أن حقق الكمين أهدافه، موثقاً مشهداً من أفظع المشاهد التي سجلت في الحرب العراقية، وبثت أجزاء من هذا الفيلم عبر محطات التلفزة العالمية دون توقف على مدى عدة أيام.

ويمكن مشاهدة زوفكو في الفيلم الذي التقطته كاميرا الفيديو اليدوية وهو جالس في المقعد المجاور للسائق، فاغراً فاه، ميتاً بلا حراك. في حين كان باتالونا مستلقياً بجثته الهامدة في حضن صديقه، مضرجاً بالدماء التي أضفت على قميصه الهاوائي ذي اللونين الأبيض والأحمر مزيداً من الاحمرار. وفي خلفية الفيلم تعالت هتافات «الله أكبر» فيما راحت عناصر المقاومة تنزع الأسلحة عن جثث المتعاقدين الدافئة، وركز مصوّر الفيلم على البطاقات الشخصية الصادرة عن وزارة الدفاع الأمريكية بوصفها «دليلاً» على أن المجاهدين قد قتلوا للتو عناصر تابعة «لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية».

ومع سماع أصوات البنادق الرشاشة وهتافات رجال المقاومة في وسط المدينة، انتشر خبر الهجوم في شوارع المدينة انتشار النار في الهشيم ، وبدأ السكان المحليون بالتدافع إلى مكان الحادث وقاموا بإضرام النيران في مركبات القافلة. وازدادت أعداد المحتشدين حول المركبات المحترقة وهم يرقصون ويهتفون، ويصرخون، احتفالاً بهذا النصر المؤزر على المحتل الأمريكي العظيم. وبعد أن خمدت نيران المركبات المحترقة، قامت مجموعة من المتظاهرين بإخراج الجثث المحترقة من الهيكل الملتهب لسيارتي الباجيرو. وقام الرجال بضرب الجثث المتفحمة بالمسحاة، وداسها الأطفال بنعالهم، وراح أحد الأشخاص يركل رأس إحدى الجثث حتى انفصل الرأس عن بقية الجسد المحترق، وقام آخر بربط إحدى الأرجل المنفصلة بحبل وربط الطرف الآخر بحجر وألقى بها فوق عمود الكهرباء وبقيت عالقة فوق الأسلاك. ووجهت الحشود نشوتها نحو الكاميرا، مرددين شعارات معادية للأمريكيين، ومؤيدة للمجاهدين، وهم يرقصون فوق السيارات المدمرة.

وقـام أحد الأشخاص بربط جثتـين بمؤخرة سيارته وأخذ يجرهما في الشارع الرئيس المسمـى شارع الشيخ أحمد ياسين تكريماً للقائد الروحي لحركة حماس الذي اغتيل على يـد الإسرائيليـين. ويمر الدرب الذي سلكـوه بمركز شرطة المدينة، وبـدا أن ضباط أمن المدينـة ليس لديهم مصلحة في الوقوف في وجه الجمـوع الهائجة. وتوجه أحد المصورين إلى ضابـط شرطـة ليسأله عـن رأيه بما يحـدث في الوقت الذي كانت فيـه جثث القتلى تنتهـك، وصـرّح الضابط بكل وضـوح أن ما حدث ليس من شأنهـم. وواضح أنهم أدركوا العقاب السريع والوحشي الذي سيحل بمن يساعد الأمريكيين.

توقفـت السيـارة التي كانت تجر الجثـث عندما وصلت إلى نهـر الفرات، حيث قامت مجموعـة من الأشخاص بتعليـق ما تبقى من جثث المتعاقدين علـى دعائم الجسر. وقام أحدهـم بتعليق لافتة على الجسر تقول: إن الفلوجة هي مقبرة الأمريكيين. وبقيت الجثث متدلية من الجسر عدة ساعات في الوقت الذي كانت السيارات تروح وتجيء فوق الجسر في أبشع وأفظع مشهد للموت. وقامت عناصر المقاومة بإنتاج شريط فيديو للحادثة ونشره عـبر الإنترنت. وفي هـذا الفيلم الـذي أعلنت المقاومة فيـه عن المسؤوليـة عن الحادث، عرضت الوثائق التي جـرى الاستيلاء عليها وكذلك جثث المتعاقدين، وظهر أحد عناصر المقاومة ليروي وقائع العملية. ظهر هذا الشخص الذي كان يغطي وجهه كله بوشاح أسود ولم يظهـر منـه سوى عينيه السوداويـن وخلفه ستارة سوداء، وراح يسـرد رواية المقاومة للحادثة. استهل الرجل حديثه كالعادة بتلاوة آيات قرآنية[1]:

1- هكذا جاءت العبارات المنصصة في الكتاب مع ملاحظة أن ما ورد في متن الكتاب ليس من القرآن. وهذا هو النص الإنجليزي كما ورد في الكتاب:

The man begins with a typial Koranic tribute…

Thanks to Allah and praise to the messenger who is

Mohammed. We do not kill them, they kill themselves. If you do not do it, Allah will do it for you…

ولعـل المؤلف قصد قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الآيـة 17 مـن سورة الأنفـال] ولعل المقصود بالجزء الأخير الآيـة 38 من سورة محمد ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾.

«الشكر لله والحمد للرسول الذي هو محمد، إننا لا نقتلهم، ولكنهم يقتلون أنفسهم، وإذا لم تفعلوه، فإن الله سيتولى ذلك عنكم.

«في صباح يوم الأربعاء الموافق للحادي والثلاثين من آذار/ مارس، وبعد الصلاة، جاء أحد مخبري المجاهدين ومعه معلومات، وأخبر قائدنا بأن مجموعة من عملاء وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ستعبر الفلوجة من الشارع الرئيس إلى الحبّانية [بلدة إلى الغرب من الفلوجة] لعقد اجتماع خاص. فطلب مِنَّا القائد أن نكون مستعدين لقتل هؤلاء الناس. وبعد أن جهزنا أنفسنا وأسلحتنا، انطلقنا في تمام الساعة السادسة صباحاً وبدأنا نرصد الطريق من الجسر إلى الحبانية وقمنا بذلك ثلاث مرات.

«وبعد ذلك اختار القائد تقاطع المدينة لتنفيذ الهجوم. وقد اختار هذا التقاطع؛ لأنه مزدحم بالسيارات مما يمنعهم من الفرار، وحدد لنا القائد مواقعنا، وبقيت أنا والقائد ومجاهد آخر في ذلك الموقع معاً.

«بعد ذلك، توجهت إلى إحدى المقاهي لشرب الشاي، فجلست في المقهى وشربت الشاي، وحين فرغت من شرب الشاي كانت الساعة التاسعة والربع صباحاً، ثم جاء القائد ومعه مساعده وجلسوا معي. ثم قدم لنا القائد تعليماته الأخيرة، وطلب مِنَّا أن نتحرى السيارات التي يستقلونها؛ لأنهم عادة يستخدمون سيارات مدنية، وأنهم غير مصحوبين بحرس شخصي، وأنهم يلبسون ملابس مدنية- وهم يفعلون ذلك كيلا يقعوا أسرى بيد المجاهدين؛ لأن كل أمريكي يدخل الفلوجة سيكون مصيره القتل.

«وتحدثت إلى مساعد القائد، وقال لي: علينا أن نستكشف الشارع مرة أخرى في الساعة الحادية عشرة صباحاً لنرى إن كانوا قادمين أم لا، ثم تحدثنا مرة أخرى مع عيوننا لنستوثق منهم إن كان الفريق في طريقه أم لا. فقالوا لنا: إن الهدف سيكون في الفلوجة في غضون ساعة أو ساعتين. قيل لنا في الأصل إنّه في الساعة العاشرة صباحاً، غير أن استكشافنا الأول كان في الساعة الثامنة صباحاً، ولكنهم وصلوا فعلياً في الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً، وشاهدهم صاحب المقهى وقال: «لم جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا؟ سيقتلون على يد المجاهدين!».

«ثم طلب القائد من كل واحد أن يأخذ موقعه؛ لأن الوقت قد حان، ثم طلب مِنَّا أن نحرك سياراتنا إلى الموقع، وعلينا أن نكون مستعدين لاستخدام سلاحنا وأسر هؤلاء الأفراد. بدأنا بالتحرك، وأخذ كل واحد منا موقعه، وقرر القائد مهاجمة السيارة الأخيرة، وأسر السيارة الأولى، ثم قمنا بمهاجمة السيارة الأخيرة وحاولت السيارة الأولى الفرار بالالتفاف إلى المسرب الآخر من الشارع فلم يتمكنوا من الهرب وأمسكنا بهم، ثم قتلنا الأشخاص الموجودين في السيارة الأولى. وبحمد الله انتصرنا عليهم وأخذنا أسلحتهم ومتاعهم.

«ثم طلب إلينا القائد أن نترك بعض الأسلحة، ثم جاء أهلنا في الفلوجة وأحرقوا السيارات وأخبرونا بأن الله نصرنا، وقالوا لنا إنهم أحرقوا كل شيء في السيارات، وقد شاهدتم النتيجة في الأخبار. لقد نصر الله أهل الفلوجة نصراً عظيماً، لقد نصرنا الله ونصر المجاهدين.

«وسنواصل الجهاد».

علمت قوات المارينز بالهجوم من فوكس نيوز. وبعد ساعات، لم تجرؤ قوات المارينز على دخول الفلوجة، ولكنهم بدلاً ذلك اتصلوا بالشرطة العراقية، وطلبوا مِنْها إنزال الجثث عن الجسر. وقد تلكأت الشرطة العراقية أيضاً من الاقتراب من المشهد، ومرت عشر ساعات قبل أن تتوجه قوات المارينز والشرطة العراقية معاً لاستعادة الجثث؛ كي تشحن إلى قاعدة دوفر الجوية في الولايات المتحدة لتشريحها. ومع أن الشائعات ذكرت أن المتعاقدين أخرجوا من سياراتهم وأحرقوا أحياءً، إلا أن نتائج التشريح أثبتت على نحو قاطع أن موتهم كان نتيجة إصابتهم بوابل من الرصاص، وثمة إشاعة أخرى تقول: إن اثنتين من جثث المتعاقدين قطعت أشلاؤها وأطعمت للكلاب، ولكن ثبت أيضاً أن هذه الإشاعات عارية عن الصحة.

وبعد أن وصلت المشاهد الفظيعة لموت المتعاقدين والتدنيس الاحتفالي بجثثهم إلى وسائل الإعلام، لم يعد في ذهن الأمريكيين حدود لا يمكن تصورها لنذالة سكان الفلوجة المجانين. وباعتقاد العراقيين الذين قاموا بتلك العملية، فإن ما حدث هو إعدام تقليدي دون محاكمة لمحتل كافر ومظهر من مظاهر الانتصار عليه. أما في نظر الأمريكيين، فإن الحادثة تمثل جريمة نكراء وخروجاً على أدنى معايير اللياقة الإنسانية، في وقت الحرب

أو غـيره. وبدت الحادثة وكأنها تمثيلية معـادة للمأساة التي لحقت بالجيش الأمريكي في الصومـال عام 1993. ولا يملـك المرء إلا أن يتساءل إن كان المقاتلـون في الفلوجة يؤدون دورهـم أمام آلـة التصوير وفي ذهنهم حادثـة إسقاط الطائـرة العمودية بلاكهوك؛ لأن إسقـاط تلك المروحيـة في الصومال لقي تمجيـداً وحفاوة في المواقـع الإلكترونية التابعة للمقاومـة والإسلاميين، لكونها برهاناً على أن «الولايات المتحدة ما هي إلا نمر من ورق»، علـى حـد وصف ابـن لادن. فحين بثت وسائـل الإعلام فيلمـاً ظهرت فيـه جثث الجنود التابعـين لقـوات الرينجرز وهي تجـر في شوارع مقديشـو، أثارت تلـك المشاهد ردة فعل اتسمـت بالصدمـة والاشمئزاز إلى درجـة اضطرت الرئيس الأمريكـي بعدها إلى دعوة الجنـود الأمريكيـين إلى الانسحـاب من الصومال. وربمـا ظن الفلوجيـون أن بإمكانهم تحقيـق النتيجة نفسها بإظهـار وحشية مماثلة في التعامل مع الجنـود القتلى. وليس ثمة دليل ثابت يشير إلى أن ما وقع في الفلوجة كان أي شيء آخر سوى عملية قتل وتنكيل على يد حشود غوغائية محبطة، صبت جام غضبها على أشخاص كانت تظن أنهم قوات شبه عسكريـة تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، غير أن ارتباط الصورة الذهنية بـين ما حدث في الفلوجة وما حدث في الصومال واضح الدلالة في ذهن الشعب الأمريكي ذي الحساسية البالغة من منظر الموت.

ومـع حلول مساء يـوم الأربعاء، كان الجمهـور الأمريكي مشـدوداً إلى أجهزة التلفاز لا يطيـق مشاهـدة الفيلم، ولا يملـك أن يشيح بوجهه عن الشاشـة، إذ استحوذت عليهم المقاطـع المعدلة من مشاهد الاحتفال والابتهاج التـي أعقبت موت المتعاقدين، التي كانت تعرض مرة بعد مرة عبر قنوات الكيبل وشبكات التلفزة. وبعد أن مل الناس تلك المشاهد، تحولت وسائل الإعلام كعادتها إلى المرحلة الثانية: وهي النقاش المهوّس الموجه إلى ذاتها حـول هل من اللائـق عرض تلك المشاهد الفظيعة والشنيعة أمـام الجمهور العام أم لا؟، وهـل كانت التغطية الإعلامية للحدث زائدة علـى الحد؟ وهل كانت تقدم مساعدة للعدو ببـث الفيديو الـذي أخرجه لغايات الدعاية الإعلامية الموجهـة؟ وبغض النظر عن نتيجة هـذه المناقشات والمناظرات، فـإن الشيء الذي بات واضحاً هـو: أن عرض تلك المشاهد كان لأسبـاب جـذب مزيد مـن المشاهدين لتلك المحطـات، والأمر الآخر هـو أن جمهور

المشاهدين بدأ يطلب المزيد من المعلومات عن ما حدث[1]. أراد الناس أن يعرفوا ما هي الوظيفة التي يؤديها المدنيون المسلحون في مسرح الحرب العراقية. وعلى الرغم من أن الحكومة الأمريكية كانت تعتمد على المتعاقدين المستقلين منذ زمن، إلا أن القضية بدت وكأنها شيء جديد في نظر الشارع الأمريكي، وطلب الناس معرفة لماذا يقوم رجال وصفوا بالمتعاقدين «المدنيين» بمرافقة شاحنات كانت تمر بمنطقة معادية دون أن تكون تحت حماية الجيش؟.

إن المبدأ الذي يدين قتل المدنيين في الحرب، الذي تقرره اتفاقية جنيف لعام 1949 هو مبدأ راسخ في النفسية الأمريكية، كما أن القتل المتعمد للمدنيين هو عمل مستنكر مطلقاً. غير أن هؤلاء المتعاقدين ظهروا في منطقة مشتبهة بين المدني والعسكري. ومع أن هؤلاء المتعاقدين ليسوا في الخدمة العسكرية بالتحديد، إلا أنهم كانوا مسلحين، وعلى أهبة الاستعداد لإطلاق النار إن دعت الضرورة، وكانوا يقدمون دعماً مهماً لجوهر المهمة العسكرية الأمريكية، كما أن رواتبهم بعد أن تزال الطبقات المتعددة للتعاقد من الباطن هي في النهاية من تمويل البنتاغون، ومع أن هذه الحقائق تقرب تحديد ماهيتهم من الجانب العسكري غير التقليدي، إلا أن بعض المحللين يصرون على القول: إن المتعاقدين الأمنيين يؤدون دوراً مدنياً؛ لأنهم لا يشتركون في العمليات العسكرية القتالية. غير أنه لو أتيح لتيغ، وباتالونا، وهيلفينستون مهلة للرد على إطلاق النار الذي وجه إليهم، لكانوا مشتركين في عمليات قتال عسكرية.

1- ثمة غاية مقصودة من تكرار عرض تلك المشاهد وغيرها من المواد الإعلامية التي يقصد منها نزع الصفة الإنسانية عن الشعوب العربية والشعب العراقي بوجه خاص في هذا السياق. ونزع الصفة الإنسانية عن العدو هو حيلة معروفة معهودة أتقنت وسائل الإعلام الأمريكية والإسرائيلة استخدامها بهدف إخماد أي باعث من بواعث الاستنكار والاحتجاج لدى الرأي العام في تلكما الدولتين على ما يقترف من جرائم في حق الشعوب العربية. ولعل هذا يفسر ضعف الاحتجاجات الشعبية في الشارع الأمريكي على أعمال الإبادة والتنكيل التي راح ضحيتها مئات الألوف من أطفال ونساء وشيوخ عزل، في حين تستنهض الهمم هناك لإنقاذ حوت محصور في المحيط أو كلب عالق على حافة واد سحيق. وقد لعب الإعلام الأمريكي الذي توجهه المؤسسات الصهيونية دوراً قوياً في حشد التأييد الشعبي للحرب على العراق وتأجيج مشاعر الكراهية نحو العرب والمسلمين. وقد تعالت الدعوات في الإعلام الأمريكي بعد حادثة الفلوجة مطالبة بضرب العراق كله بالأسلحة النووية انتقاماً لمقتل المتعاقدين الأمنيين. [المترجم].

وفي الوقت الذي أفرزت فيه مشاهد التمثيل بجثث المتعاقدين جدلاً حامياً على الصعيد العام حول القضايا المتعلقة باعتماد الجيش على المتعاقدين الأمنيين، كانت أربع أسر بمعزل عن الآخرين تبكي موت زوج، أو أب، أو ابن، وكان رفاق المتعاقدين يتأسون على موت أصدقائهم وزملائهم في المهنة. وطلب إلى تي-بوي أن يجمع مقتنيات المتعاقدين الذين قتلوا في الحادثة؛ وذلك لإرسالها إلى ذويهم. ويروي هو ما حدث قائلاً: «ذهبت وحدي إلى غرفتهم بعد وفاتهم وجمعت كل ممتلكاتهم ومقتنياتهم الشخصية. لقد أخذني البكاء في نصف الساعة الأول في غرفتهم قبل أن أبدأ بفعل أي شيء، وراعني مجرد رؤية رسائلهم وصور أسرهم، ومجلات بناء الأجسام التي تعود لمايك وجيري، وقمصان ويسلي الهاوائية، لقد كنت محطماً مزعزعاً في ذلك اليوم بكل تأكيد».

أرسلت شركة بلاك ووتر ممثلين عن الشركة لإخبار أسر المتعاقدين بموت أحبائهم، وإعادة مقتنياتهم إليهم، وكان ذلك الإجراء هو الحد الأقصى للمسؤولية القانونية للشركة تجاه تلك الأسر، ويحصل القريب الأدنى من المتعاقد المتوفى على 46 ألف دولار وهي قيمة التأمين المقررة بموجب التأمين الذي يقرره قانون الدفاع الأساسي، ورسالة تعزية متأخرة من بول بريمر. غير أن ذوي المتعاقدين القتلى اختاروا توجيه معاناتهم عبر الدعاوى القضائية والحملات الإعلامية التي تركز على أن موت الرجال كان نتيجة مباشرة للاستعجال في تنفيذ عقد إي أس أس وتعطش بلاك ووتر لجني الأرباح.

وفي كانون الثاني/ يناير من عام 2005، رفعت أسر مايك تيغ، وويسلي باتالونا، وسكوت هيلفنستون، وجيري زوفكو دعوى قضائية على شركة بلاك ووتر في محاكم ولاية نورث كارولينا. وسمت الدعوى بالتحديد أسماء توم باول، وجستن «شرك» ماكوان، وزعمت أن القرارات التي اتخذها هذان الشخصان، ونتيجة للمسؤولية المترتبة عليها، فإن شركة بلاك ووتر تكون مرتكبة لإهمال جسيم أدى إلى موت الرجال الأربعة. وكما جاء في معروض الدعوى فإن، «شركة بلاك ووتر، وجستن ماكوان، وتوم باول، قد قاموا عن قصد وتعمد وبتجاهل طائش للأخذ في الحسبان مقتضيات الصحة والسلامة، بإرسال هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو وباتلالونا إلى منطقة الفلوجة المحفوفة بالمخاطر دون أن يكون الفريق مكوناً من ستة أشخاص، ومن دون توفير الحد الأدنى من وجود سيارتين مصفحتين، ودون فرصة معاينة

الطريـق الذي ستسلكه القافلة، وجمع المعلومات الاستخبارية بشأن تلك المهمة، واستكشاف الطريق التي ستسلكها القافلة، وتحديد أفضل السبل لعملية النقل، أو حتى مراجعة خريطة للمنطقة، ودون إعطائهم الفرصة لفحص ومعاينة الأسلحة التي كانت معهم».

وتزعم الدعوى المرفوعة أن هذه المتطلبات جميعها منصوص عليها في العقد الذي وقعه الرجـال وأن تعمد شركة بلاك ووتر تقديم المعلومات على غير حقيقتها هو غش واحتيال. وجـاء في لائحة الدعوى أنه «حين قام المدعى عليهم بإرسـال هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونـا في هـذه المهمة الأمنية وتحت هذه الظروف، ودون توفـير الحماية المناسبة، ولا المعـدات ولا المعلومات المناسبـة، فإنهم كانوا يعلمون أنهم مرسلوهـم إلى وسط الفلوجة وأن احتمـال عودتهـم أحياء من تلك المهمة هو احتمال ضئيـل... ونتيجة مباشرة لسلوك المدعـى عليهم المتعمد والمستهتر والمقصود، ولتقصيرهم كما هو موضح في هذه الدعوى، فقد لقي هيلفنستون، وتيغ، وزوفكو، وباتالونا حتفهم في الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس، من عام 2004».

سعـت بلاك ووتر إلى نقل الدعوى إلى المحكمة البدائية الفدرالية، محتجة بأن قانون الدفاع الأساس أعطى الحكومة اختصاصاً حصرياً في نظر القضايا المتعلقة بموت أو إصابة المتعاقدين الذين يقدمون الدعم للعمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش الأمريكي. ثم حاولت بلاك ووتر أن تقنع المحكمة الفدرالية برد الدعوى بحجة أن قانون الدفاع الأساس قـدم تغطية شاملة لموت المتعاقدين وأنَّ كل واحد مـن المتعاقدين قد قام بتوقيع إبراء من المسؤولية وإعلان قبوله بالعمل في الظروف المحفوفة بالمخاطر التي قد تؤدي إلى هلاكه. غـير أن المحكمة رفضت رد القضية، وهو ما اعد نصـراً أولياً لأسر المتعاقدين، وفي آب/ أغسطس من عام 2005، أعادت المحكمة الفدرالية القضية إلى المحكمة البدائية التابعة لولايـة كارولينـا الشمالية. وحتى كتابة هـذه السطور، لم يصدر عن تلـك المحكمة حكم بشـأن هذه القضية. كمـا أن إريك برنس، مالك شركة بلاك ووتـر، ليس بمقدوره تسوية القضية؛ لأن ذلك سيخلق أسبقية تتبع في القضايا المتعلقة بموت المتعاقدين الأمنيين. وفي عام 2006 وحده، رفعت على بلاك ووتر تسع قضايا من ذوي المتعاقدين من أسر أشخاص لقوا حتفهم في أثناء العمل.

لم تحـدد القضيـة المرفوعة مبلـغ التعويض عن الأضـرار، تاركة تحديـد ذلك لهيئة المحلفـين بحسب ما تراه مناسباً، غير أن أسـر المتعاقدين تقول: إن المال ليس هو الهدف مـن هذه الدعـوى. وكما ذكرت دانيكا زوفكو في مقابلة مع صحيفة راليه دورهام نيوز آند أوبزرير فر: «لا أعول على تلقي فلس واحد مقابل دم ابني ... إنني أقوم بهذا الجهد لكيلا يسيؤوا إلى الآخرين كما أساؤوا إلى ابني ورفاقه». ويتلقى المؤمن لمصلحتهم رواتب دورية بموجب قانون الدفاع الأساس.

بعـد الهجوم الذي وقع في الفلوجة، عملت بـلاك ووتر بكل عناية وحرص على تحسين الإجـراءات الأمنيـة المتعلقة بعملياتهـا، غير أن الموت بقي يلاحق عقـد إي أس أس. ففي الثاني من شهر حزيران/ يونيو، كانت إحدى السيارات رباعية الدفع التابعة لبلاك ووتر تسـير بسرعة عالية على الطريق السريع قرب البصرة قبل أن تمر فوق حفرة في الشارع تكونـت على أثر قذيفة مدفعيـة، فخرجت السيارة عن سيطرة السائـق، وانقلبت وبدأت تتدحـرج قاذفة ركابها مـن المتعاقدين الأمنيـين إلى الخارج؛ فتوفي واحـد منهم متأثراً بجروحـه على الفور، وتـوفي متعاقد آخر نجا من الحادث بعد تدهـور حالته الصحية في المستشفـى بعد ثلاثة أيـام. إضافة إلى هؤلاء، توفي ثلاثة متعاقديـن آخرين لقوا حتفهم إثـر كمين نصب لهم علـى طريق مطار بغداد الدولي. وبذلـك يصبح مجموع المتعاقدين الذيـن قتلوا في تنفيذ عقد إي أس أس تسعـة متعاقدين. ويعكس هذا العدد نسبة مرتفعة وغـير عاديـة في الوفاة تتجاوز نسبة الوفاة في الوحـدات المقاتلة من الجيش الأمريكي في العراق، إلا أن أياً من حالات الوفاة كلها في صفوف المتعاقدين الأمنيين لم يُثر رداً شعبياً، وسياسياً، وعسكرياً كالرد الذي جاء على وفاة هيلفنستون، وتيغ، وباتالونا وزوفكو.

أصدر بول بريمر بياناً في اليوم الذي أعقب موت المتعاقدين الأربعة جاء فيه: «لن يمر موتهم دون عقاب». وهدد العميد مارك كميت، نائب منسق عمليات قوات التحالف، قائلاً: «سيكـون الرد في الوقـت والمكان اللذين نختارهما نحـن، وسنتعقب المجرمين، وسنقضي عليهـم أو نأسرهـم، وسنخضع الفلوجة». وفي حين أن الذين هلكـوا في الفلوجة كانوا من المتعاقديـن وحسب، إلا أن من الواضح أن أفراد الجيش الأمريكي في العراق كانوا يعدون مـوت هؤلاء المتعاقدين خسارة في صفوف الجيش. وظهر أيضاً أن التنكيل غير الإنساني

بجثثهم يستحق عقاباً شديداً؛ فالانتقام قادم، وكان الجنود ينتظرون متحفزين صدور إشارة للانطلاق للأخذ بالثأر.

ساعدت الضغوط الإعلامية المستنكرة لانتهاك حرمة جثث المتعاقدين في حفز الرئيس الأمريكي على القيام بالرد، وطالب الشارع الأمريكي المصدوم مما حدث بردّ سريع وحاسم. لكن قائد المارينز الجنرال جيمس كانوي حث على توخي الحذر قائلاً: إن على الجيش أن يرفض الدعوات التي تنادي بالانتقام. فمدينة الفلوجة لم تكن أخطر المدن العراقية وحسب، بل كانت مرشحة لأن تكون ستالينغراد أو غروزني- ساحة لمعركة دموية داخل مدينة مأهولة بالسكان. إلا أن الفريق ريكاردو سانشيز رفض تحذيرات كانوي. وبعد خمسة أيام من حادثة القتل، توجهت قوات المارينز إلى الفلوجة، وبعد مقتل سبعة من المارينز وجرح مئة، توقفت عملية «البأس اليقظ» في مكانها بعد أقل من أسبوع من المعارك والاقتتال.

ونجحت قوات المارينز في إخضاع الفلوجة مؤقتاً، وقامت بنقل السيطرة على المدينة إلى كتيبة الفلوجة، وهي قوات ميليشيا جرى تشكيلها على عجل من ألف جندي سابق في الجيش العراقي من الفلوجة. وبدلاً من أن تقوم كتيبة الفلوجة بإخراج المقاومة من المدينة ومنعهم من دخولها، عملت على مساندتهم أو الالتحاق بهم، وصارت الأسلحة والمعدات التي سلمها الجيش الأمريكي للكتيبة بيد المقاومة، كما أن عدداً من قوات الأمن تورطوا في عمليات خطفٍ وهجمات تستهدف الأمريكيين ومعاونيهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر جاءت الطامّة على المدينة مع انطلاق عملية «شبح الغضب» التي نسقت بين قوة الأسلحة الأمريكية كاملة والجنود الأمريكيين تاركة الفلوجة مدينة مدمرة على أنقاضها. وحوّلت قصص الدفاع البطولي عن المدينة والتضحيات التي قدمها سكان هذه المدينة الصناعية إلى أسطورة في العالم العربي. وحتى في مقديشو، كان المسلحون الصوماليون يلبسون قمصاناً مطبوعاً عليها كلمة «الفلوجة».

في الحادي والثلاثين من آذار/ مارس، 2005، وإحياءً للذكرى الأولى للحادثة، قامت قوات المارينز التي تسيطر على المنطقة المحيطة بالفلوجة بدعوة بلاك ووتر إلى حضور حفل لتأبين زملائهم الذين قضوا نحبهم في ذلك المكان، وتوجه مايك رش، مدير

العمليات في بلاك ووتر، ترافقه مجموعة صغيرة من المتعاقدين إلى معسكر ياهاريا شرقي الفلوجة، حيث قدم ضابط القيادة عرضاً مفصلاً لكيفية استيلاء المارينز على المدينة. ووافق الحضور جميعهم على أن سكان الفلوجة يستحقون ما حل بهم بعد ما فعلوه «بمجموعهم» للمتعاقدين الأمنيين الأربعة. ثم توجهت بعد ذلك مجموعة من المارينز لتأمين المنطقة المحيطة بالجسر الذي أطلق عليه اسم «جسر بلاك ووتر» قبل أن تلحق بهم قافلة بلاك ووتر متخطين المنازل المهدمة والمهجورة الموسومة بإشارة (×) أو (o) التي تميز منازل المتعاطفين مع المقاومة من المتعاطفين مع الأمريكيين على الترتيب. واحتشد الجميع على الجسر المتأرجح فوق مياه نهر الفرات الموحلة للوقوف بصمت حداداً على المتعاقدين الذين علقت أشلاؤهم عليه.

ثم ألقى مايك رش كلمة موجزة نيابة عن إريك برنس، شكر فيها قوات المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، والتقط أعضاء فريق الممبة صوراً تذكارية، ووزعوا قمصاناً طبع عليها شعار بلاك ووتر، وتحدثوا إلى المارينز عن عمليات القتل المؤكد والمعارك التي جرت في المدينة في معركة الفلوجة. وأخبر قائد قوات المارينز فريق بلاك ووتر بأن رجاله ما زالوا «يعضون أناملهم» حنقاً، لأنهم لم يشفوا غليلهم من الثأر بقتل المزيد من سكان الفلوجة- وواضح أن تدميرهم شبه الكامل لمدينة الفلوجة لم يشبع رغبتهم في محو المدينة عن الوجود.

يقول تي-بوي: إنه يحب المارينز على ما فعلوه في الفلوجة، ولا يخفي افتخاره بأنه كان في السابق أحد جنود المارينز. ولكن لا يمكن عد أقسى الجنود المحترفين رجلاً آلياً منزوع الأحاسيس، فتقطيب جبين تي-بوي والرعشة التي تطغى على صوته حين يستحضر ذكرى تأبين رفاقه يشهد على هذه الحقيقة. «كنت آخر شخص يصل إلى الجسر بعد خروجنا من عرباتنا المصفحة، كنت أشعر بثقل الحركة، وغشيتني مشاعر جياشة ... وبينا أنا متوجه إلى ذلك الجسر الأخضر اللعين، لم يعد بإمكاني حبس دموعي، لم يسبق لي أن بكيت مثل ذلك البكاء إلا حين دخلت غرفتهم لجمع مقتنياتهم بعد الحادثة. وها أنا ذا بلباسي العسكري الكامل وخوذتي أبكي كالطفل الصغير، لقد أمضيت عدة دقائق أتأمل الجسر- أتمعن المكان الذي علق فيه رفاقي في بلاك ووتر بعد أن مثّل بجثثهم. كان الموقف

فيّاضاً بالمشاعر. وكنت في غاية النقمة والغضب، كنت أشعر برغبة جامحة في التوجه إلى المدينة وإطلاق النار عشوائياً على الناس هناك دون شعور بالذنب... لا يهمني من أقتل؛ أريد الثأر لنفسي، لم يكن في ذهني شك أن بعض هؤلاء الناس كانوا على بعد كيلو متر من الشارع. وأظهرت التغطية الإعلامية السيارات وهي تتعرض للنهب، والجثث وهي تتعرض للتمثيل على يد سكان المدينة العاديين- كان بعضهم من الشباب وبعضهم الآخر من كبار السن، لقد كنت غاضباً جداً؛ لأن بعض هؤلاء كانوا على بعد مرمى حجر».

يضع تي-بوي غضبه جانباً حين يؤدي عمله. إلا أن من الواضح أن تلك الحادثة قد تركته في نفسية جريحة. فحين قابلته أول مرة حين كان مع فريق المبة في دورية طريق المطار، كنت أظن أن سلوكه الانفرادي في «تحديد النطاق» كما يسميه رفاقه، كان أسلوبه الخاص في التركيز على المخاطر المحيطة في أثناء السير في الطريق. ولما ازدادت معرفتي به تبين لي أن تلك العزلة تعكس معاناة روح شريرة كامنة داخله أكثر من أي شيء آخر. وإلى جانب الحمل الثقيل الذي يرهق قلبه، يحرص تي-بوي على حمل تذكار رمزي لزملائه الأربعة- وهو التذكار الذي مسح به أعمدة جسر بلاك ووتر في يوم تأبين ذكرى رفاقه: «أحضرت معي علماً أمريكياً أخذته من غرفة زملائي، ولا أعرف لمن كان هذا العلم، لكن المهم لي أنه ملكهم جميعاً، وهو جزء مني كذلك. أخرجت ذلك العلم الأمريكي الصغير من جيبي ومسحت به الجسر عدة مرات، وقلت في نفسي: كم أنا مسرور بالانتقام الذي ألحقه المارينز بالفلوجة».

ويبدو أن تذكر العقوبة التي أوقعتها قوات المارينز بالفلوجة وأهلها تزيد في بأس تي-بوي وصلابته، ويتحوّل هذا الشاب المعذب المهزوز إلى جندي مهيب مقتحم سابق من المارينز: «ما زلت أحتفظ بذلك العلم حتى هذا اليوم، وأنا أحمله معي منذ ذلك الوقت في كل مهمة أكلف بها».